مكانة التربية في فلسفة كانط

بقلم الأستاذ: محمد بومانة
قسم الفلسفة جامعة زيان عاشور

الجلفة

لاشك أن الفلسفة الكانطية تحتل مكانة هامة في تاريخ الفلسفة وذلك بالنظر إلى التأثير الذي أحدثته في الفلسفات التي جاءت من بعدها، فلقد شطرت فلسفة كانط الفلسفة الحديثة إلى شطرين ما قبل كانط وما بعده[1]،حتى أن شوبنهاور قال بان المرء يظل طفلا حتى يفهم كانط[2].

إن الفلسفة الكانطية فلسفة مترامية الأطراف، فالمتصفح للإنتاج الفلسفي الكانطي الذي امتد إلى حوالي خمسين سنة يجد انه قد شمل كل مجالات المعرفة الإنسانية، العلمية منها والفلسفية، وهو ما أعطاه حضورا دائما لدى الدراسين اليوم، فكانط هو واحد من أولئك المفكرين الذين ترتد إليهم الإنسانية بين الحين والآخر واثقة من أنها لابد واجدة عندهم شهادة فكرية حية تجعل منهم دائما أبدا مفكرين أحياء في كل عصر من العصور[3] .

غير أن الشيء الملاحظ عندنا نحن في الجزائر وفي العالم العربي عموما، هو أننا كثيرا ما نعتبر كانط إما فيلسوفا في المعرفة أو في الأخلاق أو في الميتافيزيقا أو في الفن....لكن نادرا ما نعتبره فيلسوفا في التربية، وهذا خطأ كبير ينم عن عدم دراية بما خلفه كانط من أفكار وتأملات تربوية لاتقل شأنا وقيمة عن أفكاره الفلسفية الأخرى.

إن ملاحظة بسيطة عابرة لبعض الكتب العربية في تاريخ فلسفة التربية كفيلة بأن تبين لنا هذا التجاهل غير المبرر لفلسفة كانط التربوية، فالمتأمل لكتاب "تطور النظريات والأفكار التربوية" للدكتور عمر محمد التومي الشيباني يجد انه ينتقل مباشرة من عرض أفكار روسو التربوية إلى العوامل المؤثرة في تطور التربية والممهدة لظهور الحركات التربوية في القرن التاسع عشر، متجاهلا الأفكار التربوية التي خلفها كانط تجاهلا تاما.

إن الأمر نفسه يتكرر مع الدكتور محمود عبد الرزاق شفشق صاحب كتاب "الأصول الفلسفية للتربية" والذي استعرض فيه فلاسفة التربية من سقراط إلى برتراند راسل لكنه للأسف لم يعتبر كانط واحدا منهم.

إننا ومن خلال البحث المتواضع في أرشيف المكتبات العربية وجدنا أن هناك دراساتين عربيتين تناولتا الفلسفة التربوية الكانطية، الأولى للدكتور عبد الرحمان بدوى بعنوان "فلسفة الدين والتربية عند كنت" والثانية لسهام محمود العراقي بعنوان "فلسفة كانط في التربية "،كما توجد دراسة أخرى وهي دراسة مترجمة للباحثة الايرانية "طيبة ماهر زادة" بعنوان "فلسفة كانت التربوية".

كما أن كتاب كانط في التربية الذي صدر عام 1803، والذي سنتطرق إليه لاحقا، لم يترجم إلى اللغة العربية إلا مؤخرا عندما قام الأستاذ محمود بن جماعة بترجمته رفقة نصين آخرين هما "ماهي الأنوار" و"ما التوجه في التفكير".

إننا نعتقد إن هذا قليل جدا بالنظر إلى الاهتمام الذي حظيت به مختلف جوانب الفلسفة الكانطية الأخرى .

إن الأمر يختلف تماما لدى الباحثين الغربيين الذين كثيرا ما أشاروا إلى النظرية التربوية الكانطية، وحاولوا البحث عن أصولها وأبعادها الفلسفية، ويكفي أن نشير إلى ثلاث إسهامات في هذا المجال، الأول هو الترجمة التي قام بها الفرنسي الكسيس فلينينكو a.philienenko لكتاب كانط في التربية، والذي أعطاه عنوان "تأملات في التربية "réflexions sur l'éducation وهي ترجمة جيدة أضاف إليها تقديما وافيا شرح فيه الظروف التي كتب فيها كانط هذه التأملات.

أما الدراسة الثانية فهي التي قام بها "ادوارد فرانكلين بيشنى" buchner والتي أعطاها عنوان "النظرية التربوية عند ايما نويل كانط" وكان ذلك عام1904.

كذلك هناك دراسة أخرى هي تلك التي قام بها آنات شيرتون annette cherton والتي أعطاها عنوان كانط في التربية.

هذا ناهيك عن الدراسات الأخرى التي شملت كل مجالات فلسفته.

أما عندنا في الجزائر فالدراسات حول فلسفة كانط تعتبر قليلة جدا على الرغم انه في السنوات الأخيرة قد لاحظنا أن هناك إلتفاتة واضحة لهذه الفلسفة، العريقة خصوصا من قبل الباحثين في مرحلتي الماجستير والدكتوراه في أقسام الفلسفة وهي التفاتة لا يمكن التغاضي عنها والتقليل من شأنها.

أما في مجال فلسفة التربية عند كانط، ففي حدود علمي أنه لا توجد هناك دراسات على الإطلاق في هذا المجال.

أهمية كتاب كانط في التربية:

لقد كتب كانط في التربية بعض الخواطر جمعها تلامذته فيما بعد وضمنوها في كتاب "في التربية"ueber padagogik وكان ذلك سنة 1803 بمناسبة عيد الفصح [4]. ويعود أصل هذه الخواطر إلى دروس في البيداغوجيا ألقاها كانط في الجامعة أثناء فترات متقطعة من سنة 1776 إلى سنة 1787[05]، لكن كانط لم يكتب هذه الخواطر بشكل منظم، بل كانت على شكل أوراق وقصاصات غير مرتبة سلمها في آخر حياته إلى تلميذه رينك "rink"[06]، وطلب منه أن يجمع منها ما يكون فيه فائدة للجمهور[07]، وبعد ذلك تمت ترجمة هذا الكتاب إلى العديد من لغات العالم.

ويمثل هذا الكتاب في رأينا أهمية بالغة بالنظر إلى عدة أمور، أهمها ما تضمنه من أفكار تربوية ذات دلالة وعمق كبيرين، وثانيها أنه آخر كتاب صدر لكانط في حياته، ونحن نعلم أن ما يكتبه المرء في آخر حياته يكون له مصداقية وقيمة اكبر من الكتابات التي تكون في بداية المشوار، أما الأمر الثالث الذي يعطي قيمة كبرى لهذا الكتاب هو انه يمثل خلاصة تجربة كانط في الميدان، وهو الذي أمضى أغلب أيام حياته في التدريس سواء في التعليم الخاص أو في التعليم الجامعي، وبالتالي فقد جمع فيه كانط بين النظر والممارسة.

كما أن الشيء الملاحظ هو أن التفكير التربوي عند كانط قد رافق جميع مراحل تفكيره الفلسفي، فقد لاحظنا سابقا أن كانط لم يكتب آراءه التربوية دفعة واحدة بل على فترات متقطعة، وقد تزامنت هذه الفترات مع أزهى فترات الإنتاج الفلسفي الكانطي.

لكن ورغم كل هذا، فإنه لايمكن أن نختصر الفلسفة التربوية الكانطية في هذا الكتيب الصغير، بل إن الذي يريد أن يبحث عن أصول هذه الفلسفة يجب عليه أن يبحث عنها في فلسفته العامة التي أمدته بأطر للتفكير، فالأفكار التربوية الكانطية مبثوثة وموزعة في كل أرجاء فلسفته الشاسعة، وبالأخص العملية منها.

أصالة المشكلة التربوية عند كانط:

هل كان انشغال كانط بالمسالة التربوية انشغالا حقيقيا نابعا عن إحساسه بأهمية التربية في حياة الإنسان ؟ أم أن المذكرات التي خلفها في هذا المجال كانت نتيجة لواجب مهني ؟

لقد اختلف الباحثون حول هذه المسألة بين من يرى أن إحساس كانط بالتربية هو إحساس حقيقي لازم كانط طوال حياته،

وبالأخص إذا ما علمنا انه قد أمضى جل حياته في التعليم إما متعلما أو معلما وأستاذا، وبين من يرى أن تلك المذكرات المتعلقة بالتربية التي خلفها كانط لا يمكن اعتبارها دليلا كافيا على اهتمام كانط بالتربية، وانه إنما كتبها نتيجة لارتباطاته المهنية بتدريس مادة التربية في الجامعة[8] .

إن المتصفح لما ورد في التأملات الكانطية حول التربية يكتشف أن اهتمام كانط بالمسائل التربوية كان اهتماما حقيقيا، وقد عبر عن ذلك في العديد من الفقرات، فقد قال صراحة "ثمة اكتشافان إنسانيان يحق لنا أن نعتبرهما أصعب الاكتشافات وهما فن سياسة البشر وفن تربيتهم، ومع ذلك لازلنا نجادل في هذه الأفكار المطلقة "[9].

وترجع هذه الصعوبة – في نظر كانط – إلى التعارض بين الطبيعة والعقل العملي، فالطبيعة مصدر الرغبة، والأهواء تحرف التربية عن غاياتها، ومهمة التربية ترويض الطفل على الخضوع لأوامر العقل وإعداده لمملكة الغايات التي تشير إليها الفلسفة الأخلاقية[10]، فيجب تعويد الإنسان في وقت مبكر على الخضوع لأوامر العقل، ولو تركنا الإنسان في حداثة سنه لا يتصرف إلا وفق مشيئته دون شيء يمنعه لاحتفظ طوال حياته كلها بنوع من الوحشية[11]، لذلك فقد اعترف كانط بأن التربية هي أهم وأصعب مشكلة تطرح على الإنسان[12].

ويظهر اهتمام كانط بالتربية كذلك عند حديثه عن مشروع نظرية في التربية والذي اعتبره مثلا أعلى سام لا يملك أن يكون ضارا حتى في حالة ما إذا كنا غير قادرين على تحقيقه على أرض الواقع، ف "ينبغي أن لا نعتبر الفكرة المطلقة ضربا من الخيال فنستبعدها وكأنها حلم جميل حتى وان كانت بعض العوائق تعترض تحقيقها"[13].

و"لاتعدو فكرة مطلقة أن تكون مفهوم كمال لم يصادف بعد في التجربة "[14]، فيكفي أن تكون فكرتنا صحيحة حتى لا تكون مستحيلة، فإذا كانت لدينا – مثلا– فكرة جمهورية مثالية تساس بالعدل فهل تعد لذلك مستحيلة؟ إن كانط ينفي ذلك ويعتبر الشرط الأساسي لكي تكون الفكرة صادقة هو أن تكون صحيحة بغض النظر عما إذا تحققت في الواقع أم لا.والأمر نفسه

ينطبق على التربية فكانط يعتبر "إن فكرة تربية تنمي كل الاستعدادات الطبيعية لدى الإنسان هي بالتأكيد فكرة صادقة "[15]. وهذا حتى في حال ما إذا عجزنا عن تجسيدها في أرض الواقع".

الإنسان والتربية:

ينطلق كانط في تبيين أهمية التربية بالنسبة للإنسان من هذه القاعدة "الهامة لا يستطيع الإنسان أن يصير إنسانا إلا بالتربية، فهو ليس سوى ماتصنع به التربية"[16].

فلا يمكن تصور الإنسان إلا من خلال التربية ونرى أن هذه الفكرة قد أكد عليها كل فلاسفة وعلماء التربية الحديثة ،لأن الإنسان لا يكتسب صفة الإنسانية إلا من خلال التربية أو ما يعرف في اصطلاح علماء النفس والاجتماع بالتنشئة الاجتماعية التي هي عملية متصلة بالإنسان دون غيره من الكائنات الأخرى، وهذا ما أكد عليه كانط كذلك من خلال قوله "الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يجب تربيته "[17].

فالطبيعة الإنسانية تبقى قاصرة ما لم تنمى بالتربية لأنه "يكمن في صلب التربية السر الكبير لكمال الطبيعية البشرية"[18].

إن مهمة التربية في نظر كانط هي تنمية الاستعدادات الطبيعية لدى الإنسان تنمية متوازنة ولا يقصد تنمية جانب واحد من مساحة التربية، لكنه يريد تغطية كل تلك المساحة أي مختلف النواحي الجسمية والفكرية والأخلاقية.

لكن المتأمل لأفكار كانط التربوية يرى أنه يركز على تنمية الجانب الأخلاقي في الإنسان، فهو يرى بأنه "يجب على الإنسان أولا تنمية استعداداته إلى الخير فلم تضعها العناية الإلهية فيه مكتملة كلها وإنما هي مجرد استعدادات تفتقر إلى العلامة المميزة للخلقية"[19]، وهو ما سنتطرق إليه لاحقا.

التربية من أجل المستقبل:

إن التصور الكانطي للتربية ليس تصورا محددا في إطار مكان وزمان معينين، بل على العكس من ذلك هو تصور لا يخضع لتلك الأطر، لأنه لم يقصر التربية على الإنسان الألماني أو الأوروبي فقط، بل مربطها بالإنسان أينما كان.

كما أنه لم يقصر تصوره للتربية على الفترة التي عاش فيها بل ذهب إلى ابعد من ذلك، وجعل للتربية بعدا مستقبليا، فقد قال بصريح العبارة انه "يجب أن لا يربى الأطفال فقط بحسب حالة النوع البشري الراهنة بل بحسب الحالة الممكنة التي تكون أفضل منها في المستقبل أي وفق فكرة الإنسانية وغايتها الكاملة" لهذا يرى كانط بأن أي مخطط في التربية يجب أن يتخذ اتجاها كونيا "عالميا"[20] .

لقد جعل كانط للتربية مهمة نبيلة وعسيرة في آن واحد، وهي أن تجعل النوع البشري أكثر سعادة، لأن الطبيعة البشرية تنمى دائما بالتربية تنمية أفضل، وأنه بمقدورنا التوصل الى إعطاء هذه الأخيرة شكلا جديرا بالإنسانية، وهذا يفتح لنا أفقا على نوع بشري مقبل يكون أكثر سعادة ..."[21]

لكن إلى من توكل مهمة صياغة هذا النوع من التربية المنشودة ؟ يرى كانط بأن صياغة مخطط للتربية هو أمر يجب أن يوكل إلى خبراء مستنيرين ذوي مشاعر حية يهتمون بالخير الكلي، ولهم القدرة على تصور فكرة حالة فضلى آتية.

ونعتقد أن هذا نقد مباشر لأوضاع التعليم في عصره، والذي كان موكلا إلى أشخاص غير أكفاء، وهو ما أدى إلى تدهور حالته العامة بصورة لا يمكن تصورها [22]

الحرية في التربية:

يناقش كانط إشكالية تربوية مهمة كثيرا ما شغلت الفلاسفة وعلماء التربية، وهي إشكالية الحرية في التربية، والتي يعتبرها من أهم مشاكل التربية، وقد عبر عنها بالصيغة الاستفهامية التالية:

ما السبيل إلى الجمع بين امتثال المرء قسرا للقانون وبين القدرة على استعمال حريته ؟ بما أن القسر ضروري، ولكن كيف استطيع تعاطي الحرية في ظل القسر ؟[23]

إن رأي كانط واضح حيال هذه الإشكالية، وهي وجوب التوفيق بين الأمرين، أي بين القسر والحرية ...فينبغي أن أعود تلميذي على تحمل قسر يثقل حريته، وفي ذات الوقت أوجهه هو بالذات إلى حسن استخدام لحريته...[24].

وقد وضع كانط لتجسيد هذا التوافق بين القسر والحرية في التربية مجموعة من القواعد[25]، هي:

1- ينبغي ترك الطفل حرا في كل الأمور منذ الطفولة الأولى باستثناء الأمور التي يمكن فيها أن يضر بنفسه...ولكن شرط أن لا يناوئ حرية الآخرين.

2- ينبغي أن نبين له أنه لا يقدر على بلوغ غايته إلا إذا ترك الآخرين يحققون غاياتهم.

3- ينبغي أن نثبت له أننا نمارس عليه قسرا يقوده إلى استعمال حريته الخاصة، وأننا نثقفه لكي يستطيع ذات يوم أن يكون حرا

إن التربية الكانطية قائمة على أساس احترام القانون والتصرف بمقتضاه، وليس الواجب ممكنا إلا بالحرية، لأنه إذا كان على الإنسان واجب كانت له القدرة على أدائه [26].

أهداف التربية:

لقد اعترف كانط بأن التربية التي كانت سائدة في عصره لا تمكن الإنسان من بلوغ الغاية من وجوده[27]، لذلك وجب علينا أن نعمل على صياغة مخطط لتربية جديدة تكون متوافقة مع غاية الإنسان[28]، وهي الغاية التي تتمثل في الكمال الأخلاقي.

وقد وضع كانط لهذه التربية الجديدة أربعة أهداف أساسية:[29] وهي:

1- الانضباط: وهو السعي إلى الحيلولة دون أن تؤدي الحيوانية إلى فقدان الإنسانية.

2- الثقافة: والتي تشمل التعليم ومختلف أنواع التحصيل والمعارف.

3- تحصيل الفطنة والتحضر والتكيف مع المجتمع الإنساني.

4- التنشئة الخلقية: والتي اعتبرها الهدف الحقيقي والأسمى للتربية، لأنها تنسجم مع غاية الإنسان وهو ما سنتطرق إليه في المطلب الموالي.

التربية الخلقية:

ينبغي أن لا يكون الإنسان – حسب كانط – مؤهلا لشتى أنواع الغايات فحسب، بل ينبغي أيضا أن يكتسب إحساسا يجعله لا يختار إلا الغايات الحسنة، وهي التي يتبناها بالضرورة كل شخص، ويمكن أن تكون في الوقت ذاته غايات كل إنسان[30].

وهذه التربية الخلقية في نظر كانط، يجب أن تقوم على مبادئ " فينبغي الحرص على أن يعتاد الطفل التصرف وفق مبادئ لا بحسب دوافع "[31] .

وهذه المبادئ لا تفرض على الطفل فرضا بل يتبين هو نفسه عدالتها، أي تنبع من فاهمته الذاتية. فمصدر هذه المبادئ هو الإنسان نفسه "ففي الثقافة الأخلاقية لابد من السعي في سن مبكرة إلى

تمكين الأطفال من تصورات للحسن والقبيح....إن الجهد الأول في التربية الأخلاقية يتمثل في تكوين طبع ما، والطبع يكمن في القدرة على التصرف وفق مبادئ "[32].

كما تقوم التربية الأخلاقية عند كانط على المفهوم الذي أقام عليه كل فلسفته الأخلاقية إلا وهو مفهوم الواجب، و"هذه الواجبات التي يكون الطفل ملزما بأدائها ليست سوى الواجبات المعتادة تجاه الذات والآخرين "[33].

إن التربية في تصور كانط لا ينبغي أن تقوم على أساس المنفعة أو المصلحة ، وإنما ينبغي أن تقوم فقط على أساس أداء الواجب لذاته، وهو ما دفع بأحد الباحثين إلى القول بأن التربية الكانطية تمتاز بالجدية، لكن هذه الجدية وصفها بالجدية العبوس والتي تخص الفلسفة الألمانية برمتها[34].

لكن رغم هذا الوصف فإن ما قدمه كانط من أفكار تربوية يبين لنا بوضوح مدى اهتمامه بما يدور حوله من مسائل اجتماعية، وتنفى عنه صفة الانعزال والانغلاق على الذات التي وصفه بها كثير من المؤرخين.

المصادر والمراجع:

1- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ط6: دار المعرفة ص .208

2- إبراهيم زكرياء: كانت أم الفلسفة النقدية مكتبة مصر ص11.

3- المرجع نفسه ص10.

4**-Edward franklin buchner:** the educational theory of immanuel kant. London.j. b. lippincott compoony 1904. p16.

5**- Ibid**, p 15

6- **رينك**: كان طالبا مقربا جدا من كانط: عمل أستاذا للفلسفة بنفس الجامعة ثم أصبح واعظا في دانزيغ. توفي عام 1811 .

7**- Kant,** réflexions sur l'éducation .introduit et traduit par A. philenenko. Libraire p11:philosophique J.vrin 1967

8- **عبد الرحمان بدوى**: فلسفة الدين والتربية عند كنت، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980، ص103.

9- **كانط**: تأملات في التربية، ماهي الأنوار، ما التوجه في التفكير، تعريب وتعليق محمود بن جماعة، ط1، دار محمد علي للنشر، 2005، ص18.

10- **الجيوشي فاطمة**: فلسفة التربية منشورات جامعة حلب ص.47

11- **كانط**: تأملات في التربية، ص.13

12- المصدر نفسه، ص.17

13-المصدر نفسه، ص.16

14- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

15- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

16- المصدر نفسه، ص.11

17- المصدر نفسه، ص.11

18- المصدر نفسه، ص.14

19- المصدر نفسه، ص.17

20- المصدر نفسه، ص.19

21- المصدر نفسه، ص15.

22- **kant**:op, cit, p18 .

23- كانط: تأملات في التربية، ص27

24- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

25- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

26- **يوسف كرم**: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص.25

27- **كانط**: تأملات في التربية، ص.15

28- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

29- المصدر نفسه، ص.22

30- المصدر نفسه، ص23.

31- المصدر نفسه، ص.58

32- المصدر نفسه، ص.59

33- المصدر نفسه، ص.68

34- **الجيوشي فاطمة**: فلسفة التربية، ص48.